

العمارة الإسلامية

والوحدة الثقافية في بنار المدن والمساجد

دكتور عبد الباقي علي قصبة



كان ثاني بناء للمدن في الإقليم هو بناء الكوفة، وكان هذا البناء ساذجا بسيطا من القصب. فلما أحترق سألوا عمر بن الخطاب أن يأذن لهم في البناء بالأحجار فأذن لهم قائلا «افعلوا، ولا يهتدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تظاولوا في البنيان، والزمو السنة تلتزمكم الدولة» (١).

وقد بنى هذه المدينة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه على الفرات بأمر الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٦هـ بعد بضعة أشهر من بناء البصرة، وتقع بين البصرة والخرقة، وقد أصبحت مركزا ثقافيا وعلميا ناقس الكوفة ونما فيها العمران نمو في البصرة، وصار لكل منهما مدارس في النحو واللغة والأدب، فكان مذهب الكوفيين في النحو يقابل مذهب البصريين.

أما البصرة فقد بناها عتبة بن عروان، وكانت يوم بناها تمتد من البصرة على الضفة الغربية للفرات إلى مكة رملا وجبالا وسهولا، لا يفصل بينها نهر.. فأنظر كيف صار أمرها فيما رواه ابن حوقل والاصطخري «ذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة سنة ١٦هـ فزادت على مائة ألف نهر وعشرين ألف» قال ابن حوقل: «وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال حتى رأيت كثيرا من تلك البقاع فرما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلها زواق صغار، ولكل نهر اسم ينسب به إلى صاحبه الذي احتفزه أو إلى الناحية التي يصب فيها، فجويت أن يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها» (٢).

وإذا استعملنا منح ابن خلدون وشككتنا في الرقم الذي ورد في رواية ابن حوقل والاصطخري وهو ١٢٠ ألف نهر في مساحة $75 \times 150 = 11250$ ميلا مربعا فيكون بالميل الواحد عشرة أنهار، فقد كفانا الاصطخري مؤونة ذلك.

أما القسطنطين، فكانت أول مدن المسلمين في مصر بناها عمرو بن العاص سنة ١٨هـ وتقع على النيل في مواجهة الخرقة، وقد أخذت القسطنطين تتسع وتزداد عمارة بمرسوخ أقدام المسلمين في هذه الديار، وقد فاقت البصرة والكوفة في كثير من الشئون «وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال» (٣).

أما عمارتها فقد انتظمت ٢٦٠٠٠ مسجد، ثمانية آلاف شارع مسلولك، ١١٧٠ حماما، وإذا هذه الأرقام فيها شيء من المبالغة، فرمما رجع ذلك إلى اتصال عمارتها فيما بعد بعدة مدن منها القسطنطين التي بناها إلى حوارها ابن طولون والقاهرة التي بناها الفاطميون حيث اتصل هذا العمران بعضه ببعض، والنجم بالجيزة التي بناها العرب فالتصلي بينان العرب



جامع سیدی عقیة القیروان بولس

بآثار قدماء المصريين في هضبة الجيزة الى هليوبولس (عين سمس). وقد تناول وصفها
الشعراء فقال الشريف العليل:

أحن إلى القسطنطين شوقاً وإننى لأدعو لها ألا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة خنايا وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً وانقطم ناحها ومن نيلها عقدك انتظم الدرر (١)

وقد ظهر أثر النصور في مدينة القسطنطين في ظاهرة التطاول في البناء وتعدد طنقات
وأدوار المنازل حتى بلغ حملاً الى سبع، يقول المقرئ «وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠
من الناس، وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠ ألف دينار وهي دار الحرم لحماروبه» (٢)

وقد ضرب المثل بدار بنيت على النيل لأحد وجهاء المسلمين، فكان يصب فيها كل
يوم أربعمائة راوية، وقد كان الأهالي يستعملون لنقل مياه الشرب من النيل الى المنازل روافع
عرفت بالأسطال تنصل بطاقات تطل على النيل وقد أحصاها بعض المؤرخين الذين راروا
هذه المدينة (في القرن الثالث للهجرة) ومن حماروبه فقال: «طلبت بها صناعاً فلم أجد فيها
صانعاً متفرغاً حكمتي، وقيل لي: إن كل صانع معه اثنان وثلاثة، فسألت: كم فيها من
صانع؟ فأجبت أن بها سبعين ألف صانع» (٣)، وبما يدل على صدق هذه الرواية ما حكى
عن قطر الندى ابنة حماروبه حيث روى أن جدها كان في جلته ألف ثكة ثمن كل واحدة
عشرة دنانير، هذا بالإضافة الى ما أثر عن تألق أهلها في مآكلهم ومشربهم وملبسهم
وفرشهم، فقد اقتنى أحدهم ألف الى عشرة آلاف فرشة.

ومع الأمويين كان تأسيس القیروان، ويعود الفضل في بنائها الى عقیة بن نافع سنة
٥٥٠هـ يقول ابن عبد الحكم ... ثم انصرف عقیة الى القیروان، فلم يعجب بالقیروان الذي
كان معاوية بن جندب أنشأه من قبله، فركب والناس معه حتى أتى الى موضع القیروان
(اليوم ٧٣)

وقد حفظ عقبة لأصحابه المجاهدين أماكن منازلهم فشرع في بناء المسجد الجامع الذي وصفه البكري فقال: «.. أول من وضع حجره وبناه عقبة بن نافع، ثم هدمه حسان، حاشى الخراب، وبناه، وحمل إليه الساريتين الحمراءين الموشطتين بصفرة اللين لم ير الزاؤون مثلها من كنيسة كانت للأول في الموضع المعروف اليوم بالقسارية بسوق الضرب، ويقولون إن صاحب القسطنطينية بذل لهم فيها قبل نقلهما إلى الجامع زنتهما ذهبا فابتدروا الخامع بهما، ويذكر كل من رآها أنه لم ير في البلاد ما يقترن بهما، فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان يعلمه أن الخامع يضيق بأهله» (٨)، وأن خوفه بستان كبير لقوم من بني فهر، فكتب إليه هشام بأمر بشرائها وأن يدخلها في المسجد ففعل» (٩).

أما المدينة فقد تدرجت «في التوسع وامتدت أطرافها، وقد اعتنى كبار الولاة الأمويين بالزيادة في معاشها، وفي طلبهم حسان بن العمان، فإنه حدد بناء الجامع بما هو أحسن وأجمل مما كان عليه بادئ بدء، ونصب إلى جانب دار الإمارة مصالح الدوليين يعني ديوان الجند، وديوان الخراج وديوان الرسائل، وما إلى ذلك من المنشآت الضرورية لتسيير دولاب الحكومة وبذلك أخذت القيروان صبغة رومية» (١٠).

ثم جاء موسى بن نصير «فبادى في منشأتها الحسان وأوسع نطاقها حتى صارت في أقرب زمان دار العروبة في المغرب، ومن محدثاته «دار الضرب» لسك النقود... وأما السكان فإنهم تساقوا إلى إنشاء دورهم على شكل منازل المسطاط بمصر من حيث الوضع والطراز، وبنى المؤسسون إلى جانبها المساجد الصغيرة والكتاتيب، حتى إذا تكاثرت البناءات، وتلاصقت وكونت حيا سموه باسم العشرية التي تقطعه كرحبة القرشين ورحبة الأنصار وحارة نخعب وحارة ضي نافذ، وربما استعاروا للحى اسم أحد الأعيان من العرب النازحين كدرب المغيرة، ودرب أزهر ودرب أم أبوب وهلم جرا حيث لم يمر نصف قرن على تأسيس القيروان حتى أصبحت أم القرى المغربية تسعت منها أشعة الأيمان والعرفان وصارت العاصمة الإمبريقية التي تنتهى إليها المسالك، وتتفرق منها الطرقات إلى المشرق والمغرب» (١١).

وإذا كان الله هو سر الحياة، فقد روى البكري «أن هشام بن عبد الملك أمر عامله على القيروان (عبد الله بن الحجاب) بإنشاء خمسة عشر ماحلا (صهرجا) خارج سور المدينة تكون سقايات لأهلها، فباشرها وأنشأ في مدة سريعة، وما زال البعض منها معروف المكان، خصوصا في الضلع المسمى اليوم بفسقية الباي، وهي عبر بعيدة عن فسقية الأغالية من شرقها» (١٢)، وكانت هذه المصانع من المنتمات الضرورية لتكامل عمران المدينة «ومن يتأمل هندسة هذه القنوات يتحكم بأن وضعها كان في غاية الاتقان من الناحية المعمارية الفنية» (١٣).

الأسواق والوحدة الثقافية الإسلامية :

نشأت الأسواق في المدن الإسلامية مع قيام نظام الحسبة، ذلك أن هذا النظام تناول فيما تناول الجانب الاحتياجي فيما اتصل بالبيع والشراء وما اتصل بهما في نطاق الأمر بال معروف والنهي عن المنكر، من العث والاحتكار وتسعير السلع، مما ترتب عليه تنظيم الأسواق، وقد ورد أن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده قد ولوا على السوق عاملا، فولى الرسول ﷺ سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية على سوق مكة، وولى عمر بن الخطاب السائب بن يزيد مع عبد الله بن عتبة بن مسعود على سوق المدينة. (١٤)

ومما حكاه ابن العذاري قال : «قدم يزيد بن حاتم إفريقية (١٥٦هـ/٧٧٣م) وأصلحها، ورب أسواق القيروان، وجعل لكل صناعة مكانا، يقصد سوقا معينة، وكان ذلك الترتيب يجرى على قاعدة إسلامية صارت متعارفا عليها في بناء المدن بين المشرق والمغرب، كما جرى عليه الحال في مكة والمدينة والصرى والكوفة والفسطاط، وقد اعتبر يزيد في ترتيب هذه الأسواق مايوحد من العلاقة بين كل طائفة من أصحاب كل تجارة متصلا بقبائله صف مثله، وعين لكل سوق عرفا اختاره من بين وجوه تلك الصناعة ووظيفة العرف ويسمى أمينا أيضا- أن يشرف على سيرها، ويقاوم ما يطرأها من الغش، ويسهر على حسن العلاقات بين أصحاب المهنة، وعمالهم وأعاونهم، ويحرص على ضمان حقوق الأحرار كبراً أو صغراً».

وقد انتقل هذا النظام في تنسيق الأسواق في المغرب ومدينه مثل تونس وصفاقس وسوسة وغيرها من تاهرت وسجلماسة وفاس وفرضة وطليطلة وأشبيلية، وبلغ في صفلية في وحدة ثقافية متجانسة كان من نتيجتها «أن أصبحت تسمية الأسواق واحدة أو متقاربة في سائر بلاد المغرب (بل سائر بلاد الإسلام) مثل سوق العطارين، وسوق الزواجر والسراجين، والبرازين وهلم جرا». (١٥)

ويمضى حسن حسنى عبد الوهاب فيقول موضحاً أثر هذه الوحدة الثقافية فيقول «ولا أدل على ذلك من تسمية سوق البركة (بكسر الباء) وقد شغل فكرى وجه هذا التشابه مدة من الزمان حتى وقفت على خبر أورده ابن عبد الحكم في تاريخه عند ذكره لتخطيط عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط التي أنشأها بعد فتح مصر سنة ٢٠هـ قال ابن عبد الحكم: كتب عمرو بن العاص- إلى عمر بن الخطاب «إنا قد احتفظنا لك داراً بالفسطاط عند المسجد الجامع» فكتب إليه عمر رضى الله عنه «أنى لرحل بالحجاز تكون له دار بمصر» وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين، قال ابن خبطة «هى دار البركة فجعلها سوقا كان يباع فيها الرقيق» (١٦) وقد عرفت ببركة الحبش أى الرقيق.

يقول حسن حسنى عبد الوهاب «ويظهر لى أن الجنود الوافدين من مصر على إفريقية في خلال القرن التالى نقلوا هذه التسمية بعينها الى القيروان فأطلقوها على السوق التى يباع فيها الرقيق، فقالوا (سوق البركة) كما عرفوها فى الفسطاط، ولم تنف هذه التسمية عند القيروان فحسب بل إنها امتدت إلى مدينة تونس وسوق بركتها لعرض العبيد وبيعهم من أقدم ما يوجد بها، ثم إنها تحولت إلى فاس بعد ذلك، فعرف سوق رقيقها بالبركة، ومن هناك اجتازت البحر وانتقلت إلى قرطبة فتعت محل بيع العبيد السودان والعلاج بهذا الاسم أيضا» (٣٧).

الفيسفساء في المعمار الاسلامى بالمغرب والأندلس :

ترجع الفيسفساء في أصلها التاريخى إلى الأبيكتدرية في عهد اليونان، فهى من مبكراتهم، وعندهم أخذها الرومان ونقلوها إلى أوروبا وإفريقية.. وهى المعروفة بالموزايكا *Mosaica* وهى قطع صغيرة مكعبة الشكل تتخذ من المرمر والرغام والحجارة، وأحيانا من الزجاج الملون، وترسم على مادة رخوة كالجليس المبلول مثلا، فتركب منها يد صانع خبير صورا محكمة (٣٨)، من الثبات والأزهار، والأشكال الهندسية، وتلصق بها الجدران والفسيقيات.

والفسيقيات في المغرب والأندلس فى المساجد هى مكان الضوء، ومازالت حتى الآن بنفس الطريقة التى بنيت عليها. وللمغاربة والأندلسيين منهم ولع خاص بهذا الفن المعماري في مساجدهم وقصورهم، «وفى مدينة رقادة شاء مؤسسها إبراهيم الثانى أن يتركش بعض حافات صهرج قصره الكبير بألواح جميلة من الفيسفساء على الطريقة الموروثة صانعتها من تاريخ تقادم عصره» (٣٩)، لاحظ في المزهكا الفيسفساء شكل ٢٠ ومن ذلك أيضا أن الفاطميين «أخذوا الفيسفساء في فرش غرفهم من منارهم بالمهديّة، وقد عمر أخيرا في أنقاض قصر القائم بن عبيد الله المهدي على ردهة كبيرة مزخرفة بعشرات الأمتار من الفيسفساء العربية التى تحتل دوحات كثيفة تنفرع إلى أغصانها بأسفة بأبدع صنع وأجمل لون» (٤٠)، وما تزال في المغرب الاسلامى مدن جمعت بين المغاربة والأندلسيين.

يقول مونس لومبار في كتابه «الاسلام في محله الأول»: ومدينة فاس مثال بارز لإدخال حضارة تعتمد على المحدث من النوع الشرق إلى مجتمع بربرى يقوم على نمط الحياة السائد في الأدياف، وهذه المدينة التى تحتل بأسوارها وأحيائها وصناعتها وبوجود طبقة حضارية فيها، الفاس تضم سكانا ينتمون إلى أصليين مختلفين: المهاجرين الذين أبعدها من قرطبة عقب ثورة قام بها سكان أحد أحيائها والمهاجرين القيروانيين الذين كانوا وقنا ما يشكلون حرس أمراء إفريقية ثم تخلص منهم هؤلاء فيما بعده.

«وهكذا انقسمت المدينة التى قامت على وادى فاس إلى شقين عنوة الأندلس وعنوة

القرويين لكل منهما مسجد كبير وأسواق بل ودار لصك النقود».

«وسحر مدينة فاس يعود خصوصاً إلى توفر الماء بغزارة فيها، فإن القنوات العديدة المشتقة من الوادي تتوغل مياهها إلى كل منزل من منازل المدينة ذات الصحون الواسعة والمزينة بالنبات والراحين» (٢٢).

وهذه المدينة شوارعها مبلطة، تغسل شوارعها كل يوم وفي ذلك يقول ابن حوقل الذي زار المغرب في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) «تطلق مياه نهر فاس على أسواقها لتغسل الأرض وتنعش الجو وكذلك تجري المياه في عشر حمامات عمومية وتسير ثلاثمائة طاحونة» (٢٣).

فن المعمار في المغرب والأندلس :

أطلق الأوربيون على فن المعمار المغربي والأندلسي Moorshe Art لأنه يمثل وحدة فنية في نطاق فن المعمار الاسلامي الذي أطلقوا عليه Moslim أو Mohammadan Art ذلك «أن الفن الاسلامي كان موحداً في الشكل والأسلوب والمضمون إلا أن ثمة فروقا متميزة بحسب الأقاليم والعصور وبحسب التقاليد التاريخية لكل أمة من الأمم التي دخلت الاسلام» (٢٤).

وإذا كانت الثقافة الفنية في بناء المدن وصلت إلى المغرب قبل الأندلس إلا أن الجبر المسلمين اشتركوا مع العرب المسلمين في فتح الأندلس، وعاشوا معاً في المغرب كما عاشوا معاً في الأندلس، فلما أذن الله بأفول شمس الأندلس ارتد هؤلاء الأندلسيون إلى المغرب، وأثروا الحياة الفنية، والحضارية الثقافية فيها.

أما الأندلسيون فقد كان طرازهم أموياً شامياً، وقد بقي هذا الفن الأندلسي محافظاً على طابعه ولم يتأثر بالطراز المصري أو البغدادي مثلاً، فلما توحدت المغرب مع الأندلس في ظل المرابطين والموحدين جمعهم الظروف التاريخية فصاروا وحدة فنية واحدة فشأ الطراز الأندلسي المغربي وهو متأثر دون شك بالطراز الجبري والقوطي وعرف فيه عند الأوربيين بفن المدججين وهو الفن المغربي الأندلسي Hispano Mouresque.

عناصر العمارة الاسلامية في المغرب والأندلس :

العناصر الفنية المعمارية الاسلامية عامة تشمل الأقواس والأروقة والنوافذ والأبواب والمقرنصات والعقود والقباب وغيرها ويظهر الاختلاف بين المشرق والمغرب فيما يأتي :

عرف المغاربة الأقواس نصف دائرية أو منكسرة والدائري بعضه متطاوّل من أعلى أو يشبه نعل الفرس (شكل واحد) وقد شاعت في الأندلس الأقواس المقرنصة والمقصصة، والمقرنصات (Stalactites) وهي مأخوذة من التوازل والصواعد ومؤلفة من سبعة عناصر مركبة بشكل مثلثي توجد على تاج الأعمدة أو على النطف أو الأفانيز، وتكون من الجص أو من الحجر المنحوت أو محفورة على الخشب أو من الطين المحروق (٢٤) لاحظ شكل رقم ٢.

والمآذن المغربية والأندلسية مربعة (شكل رقم ٣) والسبب في تربعها أنها بدأت في عصر الأمويين في الشام فأول مقذنة في الإسلام هي مقذنة جامع عمر في بصرى، وقد اتخذ الأمويون للأذان أبراج المعبّد القديم الذي قام الجامع الأموي في نفس مكانه، وكان طراز المآذن المصنوع هو أصل المآذن التي ابتدئ في بنائها منذ ذلك الحين والتي انتشرت وأصبحت الشكل النهائي للمآذن (٢٥) ومن هذا اللون مآذنة جامع القيروان في تونس ومنايرة الكتبية في مراكش التي تشبه منارة المسجد الجامع في إشبيلية.

يقول الدكتور عفيف بهنسي «من أهم المنشآت العربية في الأندلس جامع قرطبة الذي ابتداءً ببنائه عبد الرحمن الداخل عام ١٧٠هـ (٧٨٥م) وقد أجريت عليه عدة إضافات فيما

سفر جوي لمدجة قرطبة



بعد وبضم الصحن والحرم ذا الأعمدة والأقواس المركبة، ثم أقيمت قبة فوق المسجد في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وقد ألوحى هذا المسجد إلى المرابطين والموحدين ببناء المسجد الكبير في الجزائر عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) والمسجد الكبير في تلمسان عام ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) (انظر شكل رقم ٣). ومسجد الكتبية في مراكش ٦٦٥ هـ، وقد كانت هذه المساجد في مآذنها متوافقة تماماً مع الطراز الأمازيغي وبمائلة لمآذنه (الخوالدا) في إشبيلية وهي مربعة الشكل.

ومن أهم آثار الأندلس مدينة الزهراء، ومن أشهر المدن الأندلسية التي بناها المسلمون ملحقة بقرطبة، وقد أقام فيها عبد الرحمن الثالث قصره الذي امتلأ بالقوش المفردة المستوحاة من العناصر النائية والهندسية ذات الأصل الآسلافي التي انتقلت من المشرق وانتشرت في إفريقية، وبلاحظ أن منارات القلاع كانت تماثل المآذن في شكلها وهدامها، حتى التبس الأمر على الشيخ عبد الرحمن الجليلي في حديثه عن منارة قلعة المنصورة بتلمسان فحسبها منارة المسجد (٢٧) (انظر شكل ٤).

صورة للتقود الإسلامية في قصر الحمراء



- (١) ابن حنبل، المقدمة ط القاهرة دار الشعب ، ص ٢٩
- (٢) مسالك الممالك، ص ٨٠ .
- (٣) ابن حنبل : المسالك والممالك، ص ٩٦ .
- (٤) انقري : الخطط والآثار ، ج ١، ص ٣٤٠
- (٥) المرجع السابق، ج ١، ص ٣٤
- (٦) انقري : نفسه ، ج ١، ص ٣٤٠ .
- (٧) فتوح مصر والعرب، ص ٢٣٦
- (٨) العرب في ذكر بلاد إفريقية والعرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ص الخزانة ٥٧، ص ٢٢.
- (٩) المرجع نفسه ، ص ٢٢ .
- (١٠) وفيات في الخصاية العربية بالمطبعة حسن حسني عبد الوهاب، ص ٥١
- (١١) المرجع السابق، ص ٥٢
- (١٢) المرجع السابق، ص ٣٩
- (١٣) حسن حسني عبد الوهاب . المرجع السابق، ص ٥٧
- (١٤) ابن عبد البر القرطبي: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ٢، ص ٥٧٥ . ط سنة ١٣٣٦هـ
والشكل : الترتيب الأبجدي، ج ١، ص ٢٦٥ ط الرياض، ص ١٣٤٦هـ.
- (١٥) راجع اليان العرب ج ١، ص ٦٨، وحسن حسني عبد الوهاب المرجع السابق ص ٥٨.
- (١٦) راجع وفيات ص ٥٩، وفتوح مصر والعرب، ص ٩٢
- (١٧) المرجع السابق، ص ٦٠ .
- (١٨) نفس المرجع ، ص ٣٧٦
- (١٩) نفس المرجع، ص ٣٧٨
- (٢٠) نفسه ص ٣٧٩
- (٢١) ص ٦٠، ترجمة اسماعيل العربي ط الخزانة سنة ١٣٢٩هـ.
- (٢٢) مثلا ص المرجع السابق، ص ٦٠
- (٢٣) د. محيى هبسى : تاريخ ابن الخصاية ط سنة ١٣٩١هـ، ص ٢٢٦
- (٢٤) د. محيى هبسى : المرجع السابق، ص ٢٢٨
- (٢٥) المرجع السابق، ص ٢٢٠
- (٢٦) المرجع السابق، ص ٢٤٦.
- (٢٧) راجع تاريخ الخزانة العام ط الخزانة ج ١ ص ٨١ وما بعدها.